

## مقالات

### الإسلام والغرب والقدس

وليد الخالدي

(١)

كانت السيطرة على القدس مصدراً لصراع وتوتر مديدين بين الإسلام والغرب. وفي الفترة الأخيرة، عندما انتقلت السيطرة على المدينة من أيدي المسلمين إلى بريطانها ولاحقاً إلى إسرائيل، ظلت المسألة مصدراً لتوتر كبير بين الإسلام والغرب، وكذلك طبعاً بين الإسلام والعرب المسيحيين من جهة، وبين اليهودية من جهة أخرى. وذلك لأن إسرائيل، سواء عن حق أو باطل، تُعتبر عميلة للغرب والمستفيدة من دعم غربي في سعيها لتحويل ما تسميه "القدس الموحدة" إلى "عاصمة أبدية" لها.

ومسار السلام الذي بدأ في أوسلو لم يحسّن الوضع. ويعود ذلك جزئياً إلى أن قضية القدس، بمقتضى اتفاق أوسلو، أُجّلت إلى مرحلة المفاوضات بشأن الوضع النهائي، وجزئياً لأن إسرائيل استمرت في اندفاعها لاستيطان القدس الشرقية وجوارها على الرغم من أوسلو، وجزئياً بسبب تشريع الكونغرس الأميركي الذي ينص على نقل سفارة الولايات المتحدة من تل أبيب إلى القدس سنة ١٩٩٩.

ويجب ألاّ تساور أحداً أي أوهام: فإذا كان ثمة، في ظل حكومة العمل، ضوء خافت في نهاية النفق بالنسبة إلى مستقبل القدس، فإن ذلك الضوء قد أطفئ اليوم. إذ إن الليكود قد يبدأ مفاوضات نهائية بشأن القدس، وقد لا يفعل ذلك، لكن حتى لو فعل، فإن الغالب على المفاوضات سيكون من طبيعة حوار الطرشان، وبحيث لا تؤدي إلى نتيجة مشرفة للعرب والمسلمين. وهذا بالضرورة سيلحق ضرراً فادحاً بمصالح المسلمين والمسيحيين العرب في المدينة، وكذلك بالعلاقات المستقبلية بين الإسلام والغرب عامة.

وما يزيد في مخاطر التفجر التي قد تنطوي عليها نتيجة كهذه، هو تقاطع طيف فريد من التطورات التي من شأنها أن تفاقم تلك النتيجة مثل: انبعاث اليمين الديني بين المسلمين والمسيحيين واليهود على حد سواء؛ ما يبدو أنه بحث الغرب عن عدو جديد يحل محل الشيوعية؛ الإحساس المتصاعد لدى المسلمين كافة بمحاصرة الثقافة الإسلامية إزاء زحف الثقافة الغربية العارم. وفي الفترة التي سيتقرر فيها مصير

القدس على طاولة المفاوضات، كما يبدو، فإن ذلك سيتواكب مع الانتخابات الأميركية لاحقاً في هذه السنة؛ ومع فرحة النصر في الذكرى الثلاثين للاحتلال الإسرائيلي للقدس الشرقية، وفي الذكرى المئوية للمؤتمر الصهيوني الأول، وكتاهما في سنة ١٩٩٧؛ ومع الذكرى الخمسين لإقامة إسرائيل في سنة ١٩٩٨؛ ومع تزامن حكومة ليكودية مع مرحلة مفاوضات الوضع النهائي التي يفترض أن تنتهي في سنة ١٩٩٩ – ويأتي ذلك كله مترافقاً مع مشاعر رؤيوية وتوجس على كل الجبهات ونحن نقرب من نهاية الألف الثاني بعد الميلاد.

وواضح أن ليس هناك كثير مما يدعو إلى التفاؤل بالنسبة إلى مستقبل القدس. والخطر الذي يحدث في وجهنا يكمن في الذكريات على مختلف مستويات الوعي على الجانبين؛ ذكريات نبعت من الصراع التاريخي بشأن القدس، وهي تذهب بعيداً إلى الوراء، إلى ظهور الإسلام في القرن السابع للميلاد. وهذا بالضبط ما يجعل كل هذا الكلام اللامسؤول عن "صدام الحضارات" يحدث مثل هذا الرنين.

وهكذا يمكن لتضافر هذه الأوضاع كلها أن يوفر جواً تتحول القدس فيه فعلاً إلى محفز على مواجهة مديدة تمتد طويلاً في القرن الحادي والعشرين، حيث تصطف قوى المسيحية الغربية واليهودية في جانب، وقوى الإسلام والمسيحية العربية في الجانب الآخر.

إن المنطلق الرئيسي لأنصار مذهب "صدام الحضارات" هو أن الإسلام يقع خارج التراث اليهودي – المسيحي. وهذا هراء، لأن منطلق الإسلام الرئيسي هو أنه مكمل، بل هو ذروة للتراث اليهودي – المسيحي من الكتب المقدسة. ففي الإسلام، يحتل موقعاً مركزياً مفهوم أن من أغراض الله أن يكشف عن ذاته للجنس البشري منذ الخليقة عبر سلسلة من الأنبياء والكتب المقدسة. وفي مقدم تلك الكتب تأتي التوراة والأنجيل، لكن القرآن هو الوحي الأخير. ويورد القرآن ذكر ثمانية عشر من الآباء العبرانيين والملوك الأنبياء بالتكريم، مع أن محمداً (ص) هو الأخير، الخاتم، من بين الأنبياء السالفين. ومن بين هؤلاء الأنبياء العبرانيين الثمانية عشر، يمنح القرآن موقع الصدارة لإبراهيم، الذي يوصف بأنه مسلم وباني الكعبة بالذات، أقدم مقام في الإسلام. وفي التراث الإسلامي، إبراهيم هو خليل الله – ومن هنا فالمدينة التي اشتهر أنه دفن فيها، حبرون في الضفة الغربية، تعرف بالعربية باسم الخليل، ليس إلا. وكذلك، فموسى هو كليم الله، بينما يوسف هو الصديق. وأبو بكر، الخليفة الأول، يكنى الصديق تبعاً ليوسف، نظراً إلى صدقه وإيمانه الراسخ برسالة محمد (ص) النبوية، ومؤخراً، حظرت

السلطات الدينية الإسلامية في مصر فيلماً مصرياً معتبرة ذلك تدنيساً لمقامه بسبب تصويره يوسف بصرياً.

طبعاً، هناك خلافات عقائدية رئيسية بين الإسلام والمسيحية، كما هي الحال بين اليهودية والمسيحية، بشأن المفاهيم الأساسية إياها، الثالث، الصلب، والقيامة، لكن الأديان الثلاثة تعبد الإله ذاته.

ويولي القرآن يسوع المسيح منزلة خاصة جداً. فلقد ولد من مريم العذراء، بإرادة إلهية، ويسوع هو كلمة الله؛ وهي كلمة الخلق "كُنْ"، التي ألقاها الله في مريم. وهو روح من الله، ومبارك. وهو الآية والرحمة. وقد جاء بالبينات والحكمة. كما أعانه الله بالروح القدس. وقد نُظر إلى المسيح على أنه يمتلك قوى عجائبية خاصة لا يعزوها القرآن إلى محمد (ص) نفسه. وبحسب القرآن، تكلم المسيح في المهد، وشفى المرضى، وأحيا الموتى.

ومريم، كذلك، هي موضع تبجيل خاص في القرآن، ويرد اسمها على امتداد القرآن من أولى الآيات المكية إلى المتأخرة المدنية. وكما ذكر أعلاه، تُمَجِّد ولادة العذراء على أنها البشارة. ويورد القرآن قول مريم إلى الملاك الذي بشرها بولادة طفل ذكر: "قالتُ أننى يكون لي غلامٌ ولمْ يمسنني بشرٌ".<sup>١</sup> فأجاب الملاك: "وإنْ قالتِ الملائكةُ يا مريمُ إن الله اصطفاكِ وطهرَكِ واصطفاكِ على نساءِ العالمين".<sup>٢</sup> وعقب ذلك، وصف مخاضها في آيات قرآنية رائعة الجمال، عميقة الوقع في النفوس.<sup>٣</sup>

وهكذا، فاليهود والمسيحيون كانوا "أهل الكتاب"، ينتمون إلى ذات التراث من الكتب المقدسة. وبصفتهم هذه، كفلت لهم في الإسلام حرية العبادة والملكية، ولم يُكرهوا على اعتناق الإسلام.

هذا كله يفصح عن الطريقة التي ينظر الإسلام بها إلى كل من اليهودية والمسيحية — وهو منظور يغيب كلياً عن الطريقة التي تنظر بها كل من اليهودية والمسيحية إلى الإسلام.

## (٢)

<sup>١</sup> مريم، الآية ٢٠.

<sup>٢</sup> آل عمران، الآية ٤٢.

<sup>٣</sup> مريم، الآيات ٢١ - ٣٤.

ونظراً إلى إدراك الإسلام للقربة الحميمة مع اليهودية والمسيحية، فإن الكثير مما هو مقدس لدى اليهودية والمسيحية هو مقدس لدى الإسلام أيضاً. والكثير من ذلك يتمركز في القدس. وفضلاً عن ذلك، فالقدس مقدسة لأسباب إسلامية صرفة. وبناء عليه، فالقدس بالنسبة إلى الإسلام مقدسة ثلاثاً.

فالقدس قبلة الصلاة التي توجه إليها المسلمون الأولون قبل أن تصبح مكة قبلتهم. وإلى اليوم، يعرف المسلمون القدس بأنها "أولى القبلتين". وقد تكرست قدسيتها في الآية القرآنية التي تصف إسرائ النبي محمد (ص) من مكة إلى القدس.<sup>٤</sup> وبحسب الرواية الإسلامية، فإن محمداً (ص) عرج من القدس إلى السماء، إلى ما هو "قاب قوسين" من الحضرة الإلهية.<sup>٥</sup>

وإسرائ الرسول (ص) إلى القدس ومعجازه منها أصبح مصدر إلهام لمجموعة واسعة من أدبيات التقوى الإسلامية، لأجيال متعاقبة من المحدثين ومفسري القرآن والمتكلمين والصوفيين. وفي هذه الأدبيات، يروى عن الرسول (ص) وصفه لزيارته إلى جهنم والسماء، وتبرز القدس في صميم المعتقدات الإسلامية، النصية والمجازية، فيما يتعلق بالحياة بعد الموت. وهذه الأدبيات لا تزال في التداول منذ فجر الإسلام حتى يومنا هذا، وفي اللغات التي يتكلمها ما يقارب المليار مسلم: التركية والفارسية، الأوردية والهندية، الملاوية والجاوية. وإلى يومنا هذا، يحتفل بليلة المعراج سنوياً في أرجاء العالم الإسلامي في السابع والعشرين من الشهر السابع بحسب التقويم الإسلامي، وذلك بالروايات عن وقائع الحدث وبالمواكب وبإقامة الشعائر الدينية الخاصة، بالصوم والصدقة. وجدير بالذكر أن قصة المعراج كانت مصدر إلهام لدانتي، كبير شعراء الغرب المسيحي، في "الكوميديا الإلهية"، التي يحمل الكثير من مبناها والعديد من موضوعاتها شبيهاً لافتاً لروايات المعراج الإسلامية.<sup>٦</sup>

وتقوم صلة خاصة بين القدس وأحد أركان الإسلام الخمسة – الصلوات اليومية الخمس. فبحسب التقليد الإسلامي، أصبحت إقامة الصلوات اليومية الخمس فرضاً في

<sup>٤</sup> الإسرائ، الآية ١.

<sup>٥</sup> النجم، الآية ٩.

<sup>٦</sup> Miguel Asin, *Islam and the Divine Comedy*, translated and abridged by Harold Sunderland (London: John Murray, 1926), esp. pp. 67-76.

جميع أنحاء العالم الإسلامي، في أثناء معراج الرسول (ص)، وبعد أحاديث جرت بينه وبين موسى.<sup>٧</sup>

وفي موازاة تلك المجموعة من الأدبيات المتعلقة بالإسراء والمعراج، هناك مجموعة ضخمة من الكتابات التعبدية عن فضائل القدس. وقد بدأت هذه في نهاية القرن التاسع للميلاد، ولا تزال مستمرة إلى يومنا هذا. وفي هذه الكتابات يرد أن القدس هي موقع يوم الحشر ويوم الدين عندما يظهر المسيح الدجال ويهزم. وتفصل هذه الكتابات الثواب الخاص الذي ينتظر المؤمن الذي يؤمُّ القدس ويصلي أو يجاور، أو يصوم، أو يتوفى فيها. وهي أيضاً تبين عمق اعتراف الإسلام بمراسيه العبرية والمسيحية.

ودعوني، لبيان ذلك، اقتطف مثالين: الأول من برهان الدين الفزاري، الواعظ في

المسجد الأموي بدمشق، والمولود سنة ١٢٦٢ م، حيث يقول:

وصرة الأرض بيت المقدس ويحشر الله تعالى  
محمداً (صلعم) وأمه إلى بيت المقدس وأول ما  
انحسر ماء الطوفان عن صخرة بيت المقدس  
وجمع الله تعالى الأنبياء لرسول الله صلى بهم  
إماماً ببيت المقدس وحملت النخلة رطباً جنيماً  
في بيت المقدس وأول بقعة بنيت على الأرض  
كلها موضع صخرة بيت المقدس وبشر الله تعالى  
مريم بعيسى في بيت المقدس وفضل الله مريم  
على نساء العالمين في بيت المقدس والطل الذي  
ينزل بيت المقدس شفاء من كل داء لأنه من  
جنان الجنة.<sup>٨</sup>

والمثال الثاني كتب بعد نحو ٤٠٠ عام، في سنة ١٦٨٩، على يد عبد الغني النابلسي العالم الرائد والصوفي الأبرز في أيامه في بلاد الشام: مولاي داود جئنا إلى بابكم [يعني

<sup>٧</sup> "Salat," *Shorter Encyclopaedia of Islam* (Leiden, 1974), p. 492.

<sup>٨</sup> برهان الدين الفزاري، "كتاب بعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس"، ترجمه إلى الإنكليزية تشارلز د. ماثيوس تحت عنوان:

*Palestine-Mohammedan Holy Land*, Yale Oriental Series, Researches, vol. XXIV

(New Haven, CT: Yale University Press, 1949), pp. 32-34.

القدس] بالذل والندم  
 نرجو نداكم فأنتم ساحة الكرم  
 جئت الخليفة أرجو فضله فعسى  
 من فيضه مدد يأتي لذي عدم  
 مولاي داود قد جاء عن مدائحكم  
 في محكم الذكر والتنزيل والحكم  
 مولاي داود حصنا من دروعكم  
 فحصنوا عبدكم كي يشتهي ألمي  
 مولاي داود قد طابت منازلكم  
 وعم فضلكم للعرب والعجم.<sup>٩</sup>  
 (٣)

في سنة ٦٣٨ م، فتح العرب المسلمون، بمساعدة العرب المسيحيين المحليين، القدس. وخلال ما يقارب ٣٠٠ عام قبل ذلك، كانت القدس مدينة مسيحية صرفة (حيث كان اليهود قد منعوا من الإقامة بها). وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى، وفيما خلا الفترة الصليبية الفاصلة، ظلت القدس تحت الحكم الإسلامي المستمر، أي لمدة تقارب أحد عشر قرناً – وهي أطول من الفترة التي انقضت منذ غزو النورمانديين لبريطانيا، وتزيد ثلاثة أضعاف عن الفترة التي مضت منذ أن أطلقت سفينة ماي فلوار (Mayflower) على شواطئ أميركا أول مرة.

وقد جاء عمر، الخليفة الثاني بعد أبي بكر، شخصياً لتلقي استسلام القدس من دون غيرها من المدن، وذلك تكريماً للمدينة المقدسة. وقد أمّن عمر سكان القدس المسيحيين على أرواحهم وممتلكاتهم وكنائسهم، وضمن حرية عبادتهم. وهذه الضمانات عرفت باسم "عهد عمر"، الذي أرسى قواعد السلوك إزاء سكان القدس من غير المسلمين للأجيال اللاحقة، وتحديدًا لفاتحي القدس المسلمين اللاحقين. صلاح الدين (١١٨٧م)،

<sup>٩</sup> "الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية"، مخطوطة في حيازة الكاتب، ص ١٢١.

والسلطان العثماني سليم (١٥١٦م).<sup>١٠</sup> وفعلاً، فإنه لدى دخول الأخير القدس، عرضت عليه نسخة عن عهد عمر، فوضعها على رأسه طاعة واحتراماً.<sup>١١</sup>

إن الشهامة والنبيل اللذين أبداهما هؤلاء الفاتحون المسلمون وهم في أوج قوتهم العسكرية والسياسية تجاه "الآخر" - سكان المدينة من غير المسلمين - يتعاكسان مع سلوك فاتحي المدينة الآخرين، من قبل ومن بعد. إذ يقول ستيفن رنسيمان، مؤرخ الحملات الصليبية المشهور، إن الفرسان الصليبيين، لما فتحوا مدينة القدس غاصوا حتى رُكبَ خيولهم في دماء من ذبحوا من السكان المدنيين، المسلمين واليهود،<sup>١٢</sup> بينما سُمح لليهود بالعيش بأعداد متزايدة في المدينة تحت حماية المسلمين بعد دخول عمر وصلاح الدين وسليم إليها.<sup>١٣</sup>

وتبرز المفارقة الأكثر وضوحاً في تكريم المسلمين القدس في عمارتها. وما يُعرف في الغرب بأنه جبل الهيكل كان خالياً عندما دخل عمر المدينة. وقد استعمله البيزنطيون مكباً للنفايات. أما بالنسبة إلى المسلمين، فكان يضم الصخرة التي انطلق منها معراج الرسول. ويروي المؤرخون المسلمون أن الخليفة عمر بدأ ينظف المكان بنفسه، حاملاً التراب بعباءته الشخصية. وتبعته حاشيته وجيشه إلى أن تم تنظيف الرقعة كلها، ثم رُسَّت بالطيب، وبنى عمر عليها المسجد الإسلامي الأول.<sup>١٤</sup> وفي

---

<sup>١٠</sup> Abdul Aziz Duri, "Jerusalem in the Early Islamic Period," in *Jerusalem in History*, edited by K.J. Asali (New York: Olive Branch Press, 1990), p. 106 ff.

<sup>١١</sup> F. E. Peters, *Jerusalem* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1985), p. 479 ff.

<sup>١٢</sup> Sir Steven Runciman. *A History of Crusades* (Cambridge: Cambridge University Press, 1950), vol. 1, p. 118 ff.

<sup>١٣</sup> Dan Bahat with Chaim T. Rubinstein, *The Illustrated Atlas of Jerusalem* (New York: Simon & Schuster, 1989), pp. 83, 107, 116; Amon Cohen, *Jewish Life Under Islam: Jerusalem in the Sixteenth Century* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1984), p. 14 ff.

<sup>١٤</sup> Peters, op. cit., p. 185 ff.

الأدبيات اليهودية الرؤيوية المعاصرة، اعتُبر فتح القدس على يد عمر عتقاً وتحرراً من ظلم البيزنطيين.<sup>١٥</sup>

وحذا خليفتان من السلالة الأموية في دمشق، حذو عمر: عبد الملك (ت ٧٠٥م) وابنه الوليد (ت ٧١٥م)، فشيدا على التوالي مسجدي قبة الصخرة والأقصى الرائعين، واللذين يضيفان الجمال الساحر على مدينة القدس إلى يومنا هذا. ومسجد قبة الصخرة هو أقدم بناء قائم لمسجد في الإسلام – أقدم من المسجدين القائمين في مكة والمدينة.<sup>١٦</sup> والكتابة على قبة الصخرة هي أقدم ما لدينا من أجزاء مؤرخة من القرآن.<sup>١٧</sup> وعبر العصور التالية، وفي ظل عهود إسلامية متعاقبة حكمت من دمشق وبغداد والقاهرة وإستانبول، شيدت تشكيلة واسعة من الأبنية والمؤسسات في القدس على أساس من الإحساس بالارتباط الحميم بالمدينة والتكريم لها: مساجد ومدارس ودور قرآن ودور حديث وأربطة وخوانق وزوايا ومقامات وترب وسبل ودور للأيتام وأسواق وحمامات وبرك وفنادق ومطابخ للحساء. كما شيدت مزارات لتخليد ذكرى الإسراء والمعراج، أو أحد الآباء العبرانيين، أو موضوع يتعلق بالآخرة ويوم البعث والحساب. وقد تمت صيانة هذه الأبنية عبر نظام من الوقف الدائم الذي انطوى أحياناً على تخصيص مداخل قرى كاملة لهذا الغرض في فلسطين أو سورية أو مصر. وكان الواهبون هم الخلفاء والسلاطين والقادة العسكريون والعلماء والتجار ورجال الدولة، بمن فيهم عدد من النساء. وتشهد أعمالهم الخيرية على أهمية القدس كمركز إسلامي للإقامة والحج والاعتكاف والصلاة والدراسة والدفن.<sup>١٨</sup> وتتجلى أبرز مساهمة لافتة للنظر من العصر العثماني في الأسوار الفخمة التي تحيط بـ"المدينة القديمة" الراهنة.

<sup>١٥</sup> Ibid, p. 192.

<sup>١٦</sup> Philip K. Hitti, *History of the Arabs* (London: MacMillan, 1940), p. 264.

<sup>١٧</sup> O. Grabar, "Kubbat al-Sakhra," in *Encyclopaedia of Islam*, vol. 5 (Leiden: E. J. Brill, 1980), p. 298.

<sup>١٨</sup> Michael Hamilton Burgoyne, *Mamluk Jerusalem* (Published on behalf of the British School of Archeology, Jerusalem, by World of Islam Festival Trust, 1987).



وفي فورة النصر الأولى لحرب ١٩٦٧، أراد بن - غوريون أن تدمر هذه الأسوار لأنها كانت معلماً شاخصاً يذكر بالطابع الإسلامي البارز للمدينة.<sup>١٩</sup>

لقد ركزت حتى الآن على الرابطة الإسلامية بالقدس، لأن معرفة الغرب بهذا الجانب هي الأقل. لكن ما يُعرف، أو ما يرد ذكره في الغرب عن الرابطة التاريخية والعاطفية الحميمة بصورة خاصة بين المسيحيين الفلسطينيين في العصر الحديث وبين القدس، هو قليل أيضاً. فالجماعة المسيحية الأولى كانت تتألف كلياً تقريباً من معتنقيها المقدسيين اليهود. وقبل خراب الهيكل على يد تيطس سنة ٧٠ م، قاد القديس سيميون، الذي تذكر تحذير المسيح من خراب المدينة الوشيك، أتباعه المقدسيين إلى بيلا (خربة الفحل) في شرق الأردن. وعاد هؤلاء إلى القدس ليعيشوا بين أطلالها بعد تدميرها.<sup>٢٠</sup> وكان القديس مكاريوس، مطران القدس، هو الذي حصل سنة ٣٢٥ م على إذن الإمبراطور قسطنطين في تدمير المباني الضخمة التي شيدها هديران فوق الأماكن اليهودية والمسيحية المقدسة التي كان خربها.<sup>٢١</sup> وكان التراث الشفوي المحلي الذي حفظته الجماعة المسيحية المقدسية خلال ٢٠٠ عام بين هديران وقسطنطين هو الذي كشف موقعي الجلجلة والقيامة تحت ركام الطبقات العليا من مباني هديران المهدمة. وقد مهد ذلك الطريق أمام التراث العمراني البيزنطي العظيم في القدس.<sup>٢٢</sup> والمسيحيون الفلسطينيون اليوم هم الأحفاد الأقرب روحياً ونسباً إلى تلك الجماعات المسيحية المبكرة قبل الإسلام.

#### (٤)

<sup>١٩</sup> Evan M. Wilson, *Jerusalem, Key to Peace* (Washington, DC: The Middle East Institute, 1970), p. 129.

<sup>٢٠</sup> *A Survey of Palestine* (Jerusalem: Her Majesty's Stationary Office, Government Printer, 1946), reprinted by Institute for Palestine Studies, Washington, D.C., 1991, vol. II, p. 881.

<sup>٢١</sup> Ibid., p. 884.

<sup>٢٢</sup> Ibid.

إن قرار التقسيم الذي اتخذته الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ أوصى بدولة يهودية وأخرى فلسطينية، وكذلك بنظام خاص بالقدس - في "جزء منفصل" تحت وصاية الأمم المتحدة. وضم هذا "الجزء المنفصل" مدينة القدس كلها في حدودها البلدية تحت الانتداب. وأضيف إلى هذه المنطقة نحو ٢٠ قرية عربية. وكان عدد سكان هذا "الجزء المنفصل" أقل قليلاً من ١٠٠.٠٠٠ يهودي ونحو ١٠٥.٠٠٠ عربي. والأمر الأهم الواجب تذكره بشأن قرار الأمم المتحدة بالتقسيم، فيما يتعلق بالقدس، هو أن المدينة لا تقع في أي من الدولتين المتصورتين، اليهودية أو الفلسطينية - ومن هنا "الجزء المنفصل".

وأكثر ما يجري تذكره بالنسبة إلى قرار الأمم المتحدة بالتقسيم هو أن العرب رفضوه واليهود قبلوا به. وفي الواقع، فإن العرب رفضوه، باستثناء الملك عبد الله، والقيادة الرسمية اليهودية قبلت به. لكن ما لا يتذكر هو أن المعسكر الصهيوني التنقيحي ومنظمته الإرهابيتين، الإرغون وجماعة شتيرن (اللتين يتحدر الليكود منهما مباشرة) لم يقبلوا التقسيم. وفي الوقت نفسه، فإن القبول اللفظي للتقسيم من جانب القيادة اليهودية الرسمية لم يعن القبول بـ "الجزء المنفصل" للقدس الذي كان جزءاً عضواً من خطة الأمم المتحدة للتقسيم. وكما تشهد الخطة دالت، التي وضعتها الهاغاناه،<sup>٢٣</sup> فإن القيادة اليهودية كانت مصممة على ربط الدولة اليهودية المتصورة بالقدس في "الجزء المنفصل". إلا أنه لما كان "الجزء المنفصل" يقع عميقاً داخل الأراضي العربية، في وسط الدولة الفلسطينية المتصورة، فإن إنجاز ربطه لم يكن ممكناً إلا عسكرياً. ومبكراً منذ نيسان/ أبريل ١٩٤٨ - قبل نهاية الانتداب البريطاني وقبل دخول الجيوش العربية النظامية - قامت القوات اليهودية بهجومين عسكريين رئيسيين من أجل احتلال القدس: أحدهما من تل أبيب في اتجاه القدس عبر الأراضي التي خصصها قرار التقسيم للدولة الفلسطينية، والآخر من الحي اليهودي داخل

<sup>٢٣</sup> Walid Khalidi, "Plan Dalet Revisited" with Appendices A, B, C, D, E, *Journal of Palestine Studies*, vol. xviii, no. 1 (Autumn 1988), pp. 3-70; Appendices

B and C are translations from Hebrew of Plan Dalet.

المدينة ذاتها.<sup>٢٤</sup> وفي مسار الهجوم الثاني، سقط كل ما يشكل اليوم القدس الغربية في يد الهاغاناه، وارتكبت المجزرة في دير ياسين على أيدي مجموعتي الإرغون وشتيرين، اللتين قادهما رئيسا الحكومة السابقان مناحم بيغن ويتسحاق شمير، على التوالي. وحتى قبل النهاية المحددة للانتداب في ١٥ أيار/مايو ١٩٤٨، فإن هدف الهاغاناه لم يكن احتلال كل منطقة القدس البلدية فحسب، بل أيضاً احتلال المنطقة الأكبر، أي "الجزء المنفصل" ذاته بكامله.<sup>٢٥</sup> ولم يُحْبَط إلا في اللحظة الأخيرة عبر تدخل الجيش العربي الأردني الخاضع لحكم الملك عبد الله، جد ملك الأردن الحالي - الحسين.

وبذلك، فإن السيطرة اليهودية الراهنة على القدس الغربية وما يسمى "الممر" الذي يصلها بالساحل تحققت عبر الاحتلال العسكري خرقاً لقرار التقسيم الذي ولد الدولة اليهودية نفسها. وهذا هو السبب في أن المجتمع الدولي، بما فيه الولايات المتحدة، لم يعترف قط إلى الآن، بصورة واضحة، بالسيادة الإسرائيلية حتى على القدس الغربية. وبالنسبة إلى آثار حرب ١٩٦٧، هناك حجتان تدفع إسرائيل بهما لتبرير احتلالها القدس الشرقية وأعمالها هناك منذئذ: الأولى أن الأردن منع الوصول إلى حائط المبكى في الفترة ما بين هدنة ١٩٤٩ وحرب ١٩٦٧. والأخرى أن الملك حسين أطلق الطلقات الأولى في القدس في حرب ١٩٦٧.

وقد طُرح منع الوصول بين سنتي ١٩٤٩ و١٩٦٧ مثلاً للتعصب الإسلامي. وهذا هراء، كما يتضح من أكثر من ألف عام من معاملة المسلمين لليهود في القدس. وكما يتضح من السجل التاريخي فإن حائط المبكى لم يشكل قط، قبل بروز الصهيونية السياسية، موضوع خلاف عربي - يهودي.<sup>٢٦</sup> أمّا الوصول إلى حائط المبكى ما بين

<sup>٢٤</sup> Ibid., Appendix C, p. 36; Uri-Bar Joseph, *Israel and TransJordan in the War of 1948* (London: Frank Cass, 1987), p. 64 ff, including map on p. 67.

<sup>٢٥</sup> Benzion Dinur, ed., *Sefer Toldot Hahaganah (The History of the Haganah)*, 8 Vols. (Tel Aviv: The Zionist Library, Maarakhot, 1954-1972), chap. 70, p. 1395 ff.

<sup>٢٦</sup> *Report of the Commission by His Majesty's Government-with the Approval of the League of Nations to determine the rights and claims of Moslems and Jews in connection with the Western or Wailing Wall at Jerusalem* (London: Her

سنة ١٩٤٩ وسنة ١٩٦٧ فقد كان ضحية حرب ١٩٤٨ ذاتها، إلى جانب الكثير من الضحايا الأخرى - مثل الـ ٧٥٠.٠٠٠ لاجئ فلسطيني وفقدان ممتلكاتهم وأراضيهم في عشرين مدينة وأكثر من ٤٠٠ قرية فلسطينية.<sup>٢٧</sup>

وأخذاً في الاعتبار تشديد إسرائيل المتكرر على الوصول إلى حائط المبكى ما بين سنة ١٩٤٩ وسنة ١٩٦٧، يمكن للمرء أن يتساءل عن حرية الوصول اليوم إلى الأماكن المسيحية والإسلامية المقدسة التي يحرم منها مئات آلاف الفلسطينيين من سكان الضفة الغربية وغزة الذين يُمنعون من دخول "القدس الموحدة" بموجب سياسات الإغلاق الإسرائيلية المستمرة.

وقد أعطى "ذنب الحرب" الذي اقترفه الحسين بإطلاق الطلقات الأولى في القدس في حزيران/ يونيو ١٩٦٧، إسرائيل ما يسمى حجة "الدفاع عن النفس" التي تستخدمها كتبرير شامل لاحتلالها القدس الشرقية ولجميع أفعالها هناك منذئذ. وما لا يرد له ذكر هو أن "الطلقات الأولى" للحسين جاءت عقب هجوم إسرائيل المفاجئ على مصر، والذي كان قطع شوطاً بعيداً في صباح ٥ حزيران/ يونيو ذلك. ولعل التعليق الأكثر دلالة على هذا كله هو ما جاء على لسان يتسحاق رابين، رئيس هيئة الأركان خلال حرب ١٩٦٧:

في سنة ١٩٤٨ أُجبرنا على ترك القدس الشرقية بين أيدي العدو. ومنذ انفجار الحرب الراهنة [١٩٦٧] لازمنا الشعور بأن علينا ألا نضيع هذه الفرصة التاريخية ثانية.<sup>٢٨</sup>

وفي نظرة إلى الوراء، فإنه لمما يدعو إلى السخرية ملاحظة الحماسة التي يُحتضن بها الحسين اليوم، لا من جانب حزب العمل فحسب بل من الليكود أيضاً، في حين يستمر

---

Majesty's Stationery Office, 1931), reprinted by Institute for Palestine Studies, Beirut, 1968, p. 25 ff.

Walid Khalidi, ed., *All That Remains: The Palestinian Villages Occupied and Depopulated by Israel in 1948* (Washington, D.C.: Institute for Palestine Studies, 1992).

Yitzhak Rabin, *The Rabin Memoirs* (Boston: Little Brown & Co., 1979), p. 111.

فلسطينيو القدس الشرقية يعاقبون جراء ما يُدعى أنه "ذنب الحرب" الذي اقترفه سنة ١٩٦٧.

## (٥)

واليوم، فإن المفهوم الأساسي الذي يشكل جوهر كل نقاش بشأن القدس هو "وحدة القدس". ومن ناحية المبدأ، فإن المفهوم يبدو خليقاً بالمدينة الذهبية وأهميتها الكونية للإنسانية.

إلا إنه لدى تفحص أكثر تدقيقاً، يبرز واقع مختلف.<sup>٢٩</sup> ستة وستون في المئة مما يسمى "القدس الموحدة" هو أراضٍ احتُلت بالقوة سنة ١٩٦٧: منها ٥ في المئة كانت بلدية القدس الأردنية؛ و ٦١ في المئة هي أراضٍ من الضفة الغربية ضُمت عنوة وقسراً

<sup>٢٩</sup> النسب المئوية الإجمالية التالية للقدس الشرقية والغربية من مجموع مساحة القدس "الموحدة"، كما هي اليوم، تقوم على التقدير التالي لمساحة كل منهما على الترتيب: القدس الغربية سنة ١٩٤٨، ١٦.٢٦١ دونماً، أي ما يعادل ١٤٪، القدس الغربية سنة ١٩٦٧، ٢٣.٠٠٠ دونم إضافي أو ٢٠٪، أي أنهما معاً تساويان ٣٩.٢٦١ دونماً أو ٣٤٪؛ القدس الشرقية تحت حكم الأردن سنة ١٩٦٧، ٦٠٠٠ دونم أو ٥٪، القدس الشرقية الموسعة على يد إسرائيل بعد سنة ١٩٦٧، ٦٧.٠٠٠ دونم إضافي أو ٦١٪، أي أنهما تساويان ٧٣.٠٠٠ دونم أو ٦٦٪.

تقدم سارة كامنكر (عضو سابق في مجلس بلدية القدس ومسؤولة عن تخطيط الأحياء الفلسطينية) الأرقام التالية على الترتيب بالنسبة إلى القدس الشرقية تحت الحكم الأردني وأراضي الضفة الغربية التي ضمتها إسرائيل لتوسع حدود القدس الشرقية: ٦٥٠٠ دونم تحت حكم الأردن، إضافة إلى ٦٤.٠٠٠ دونم ضمت على يد إسرائيل، وهو ما يجعل إجمالي مساحة القدس الشرقية ٧٠.٥٠٠ دونم (دراسة قدمتها كامنكر عن "القدس العربية" في الندوة ٢١ لمركز الدراسات العربية المعاصرة، جامعة جورجتاون، ١٨ - ١٩ نيسان / أبريل ١٩٩٦).

ويقدم جيفري أرونسون النسب المئوية الإجمالية التالية: القدس الغربية ٣٥٪، القدس الشرقية تحت حكم الأردن ٤٪، القدس الشرقية (مضافاً إليها المساحة التي ضمت إلى القدس الأردنية) ٥٩٪. وهكذا، فإن القدس الغربية تشكل اليوم ٣٥٪ من القدس "الموحدة"، بينما تشكل القدس الشرقية ٦٣٪ (بما يترك ٢٪ غير محسوبين).

"Settlement Monitor," *Journal of Palestine Studies*, vol. xxv, no. 1 (Autumn 1995), p. 136.

أمّا ميرون بنفستي فيقدم الأرقام المتعلقة ببلدية القدس الأردنية والمساحة الإضافية المضمومة على أنها ٦٠٠٠ دونم و ٦٧.٠٠٠ دونم على الترتيب.

*The Torn City* (Minneapolis: University of Minnesota, 1976), p. 113.

إلى منطقة البلدية الأردنية. وقبل سنة ١٩٤٨، كانت الملكية اليهودية على الأرض من الـ ٦٦ في المئة هذه أقل من ٣ في المئة.<sup>٣٠</sup> وحتى الحي اليهودي من البلدة القديمة كان يهودياً بالاستئجار بصورة رئيسية؛ فأغلبية الحي كانت تخص عائلات مقدسية قديمة بصفة وقف (إسلامي).<sup>٣١</sup>

وفيما يخص الـ ٣٤ في المئة الباقية من "القدس الموحدة"، والتي تشكل اليوم القدس الغربية،<sup>٣٢</sup> فإن الأملاك التابعة لليهود هناك قبل سنة ١٩٤٨ لم تتعدّ في مجموعها ٢٠ في المئة؛ والباقي يخص فلسطينيين مسيحيين ومسلمين وهيئات مسيحية دولية.<sup>٣٣</sup> وكان هذا القطاع يضم الأحياء السكنية الفلسطينية الأكثر ثراءً، وكذلك أغلبية القطاع التجاري الفلسطيني.

والقدس الغربية هذه ضمت أيضاً أراضي القرى التي احتلت أو دُمّرت، مثل دير ياسين ولفتا وعين كارم والمالحة وروميما والشيخ بدر وخلة الطرحة. وأغلبية مباني الحكومة الإسرائيلية في هذه المنطقة، بما فيها الكنيسة، بنيت على أرض فلسطينية؛ وبذلك تكون الكتلة الكبرى من "القدس الموحدة" هي، بكل بساطة، أرض محتلة ومنزوعة الملكية بصورة تعسفية.

<sup>٣٠</sup> ملكية الأراضي اليهودية ما قبل سنة ١٩٤٨ في القدس الشرقية الراهنة كانت محدودة جداً. ففي داخل البلدة القديمة ضمت الحي "اليهودي" الذي لم تتجاوز مساحته ٥ دونمات. وخارج البلدة القديمة ضمت مستشفى هداسا ومجمع الجامعة العبرية على جبل المشارف (سكوبس)، وكلاهما لا يتجاوزان ١٠٠ دونم، ومستوطنتي عطروت ونفي يعقوف بمساحة ٥٠٠ دونم و٤٨٩ دونماً على الترتيب.

*Jewish Settlement in Palestine*, Jewish National Fund Head Office, Jerusalem

(March 1948), pp. 2 and 52 respectively.

<sup>٣١</sup> وبحسب بنفستني (Benvenisti, op. cit., p. 239)، ضمت الأملاك اليهودية قبل سنة ١٩٤٨ نحو ٢٠٪ من الحي اليهودي، الذي كانت أغلبية أملاكه تخص عرباً ينتمون إلى عائلات المدينة القيادية كانوا يُؤجرون ممتلكاتهم إلى اليهود "لقاء أجر منخفض جداً".  
<sup>٣٢</sup> انظر الحاشية ٢٩ أعلاه.

<sup>٣٣</sup> Sami Hadawi, "Jerusalem," Map With Statistics (New York: Palestine Arab Refugee Offices, 1951?).

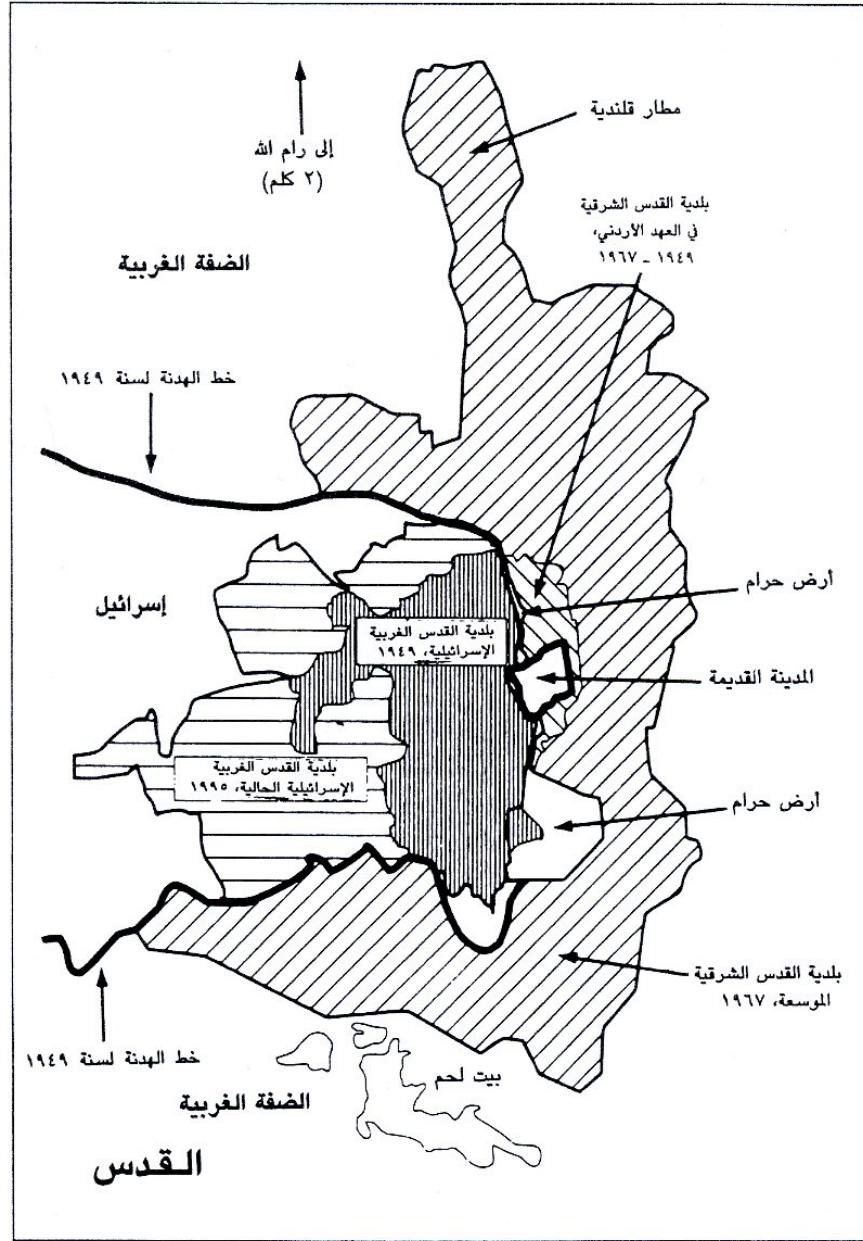
وكان هداوي موظفاً كبيراً سابقاً في دائرة تسوية الأراضي في فلسطين تحت الانتداب البريطاني.

وفيما يتعلق بالسكان في هذه "القدس الموحدة"، فهناك نحو ١٧٠.٠٠٠ يهودي يعيشون راهناً في مستوطنات أُقيمت في تلك الأجزاء من القدس التي احتلت سنة ١٩٦٧، بينما كان نحو ٣٠٠٠ يهودي فقط يعيشون في تلك المناطق ذاتها قبل سنة ١٩٤٨.<sup>٣٤</sup> وفي المقابل، فإنه إلى هذا اليوم لم يسمح فعلاً لأي فلسطيني بالعيش في القدس الغربية، في حين أن أكثر من ٣٥.٠٠٠ هربوا أو طُردوا من ذلك الجزء من المدينة خلال حرب ١٩٤٨ وبعدها. وهذا الرقم يضم سكان القرى التي ذكرت للتو، والتي أُلحقت بحدود مدينة القدس الغربية بعد سنة ١٩٤٨.<sup>٣٥</sup>

---

<sup>٣٤</sup> بحسب بنفنستي (Benvenisti, op. cit., p. 154)، عاش ١٧٠٠ يهودي في الحي اليهودي في بداية سنة ١٩٤٨. وكان عدد المستوطنين اليهود قبل سنة ١٩٤٨ في عطروت ونفي يعقوف (انظر أعلاه الحاشية ٣٠) ٢٠٠ شخص في كل منهما.

<sup>٣٥</sup> وبحسب بنفنستي (Benvenisti, op. cit.)، "أكثر من ٢٠.٠٠٠" عربي غادروا القدس الغربية وهذا لا يشمل سكان القرى المدرجة أسماؤها هنا.



وليست الحدود البلدية الموسعة الراهنة للقدس هي تخوم طموحات إسرائيل بالنسبة إلى القدس. فإسرائيل طوقت القدس الشرقية بأطواق من المستوطنات على أراضي الضفة الغربية خارج الحدود البلدية للمدينة لكنها متواصلة معها. والخطة، التي أصبحت في طور متقدم كثيراً، هي دمج هذه المستوطنات في بلدية القدس الموحدة من أجل خلق القدس الكبرى أو الحاضرة. وفي حكم الليكود، ستدفع هذه الخطة قدماً بوتيرة أكثر سعاراً حتى مما كانت في حكم العمل. وستغطي القدس



الحاضرة بالنتيجة ضعف مسطح بلدية "القدس الموحدة الراهن".<sup>٣٦</sup> والهدف الرئيسي لهذه الاستراتيجية بالنسبة إلى إسرائيل، هو أنه بمقدار ما تنتزع أرض فلسطينية من الضفة الغربية تحت يافطة القدس الحاضرة، يتقلص المجال المادي والسياسي والنفسي الذي يتبقى للفلسطينيين هناك في الضفة الغربية. ويمكن للمرء أن يعتمد على نتائجه لدفع هذه الاستراتيجية إلى مداها الأقصى، من دون رادع أو وازع.

## (٦)

سريعاً بعد أن أعلن بلفور تصريحه سنة ١٩١٧، أخبر مجلس وزرائه:

الصهيونية، أكانت على حق أم باطل، حسنة أم سيئة،  
تضرب جذورها في تقاليد قديمة جداً، وهي للحاجات الراهنة،  
وللآمال المستقبلية أكثر أهمية من رغبات وأهواء الـ ٧٠٠.٠٠٠  
عربي الذين يقطنون تلك الأرض القديمة.<sup>٣٧</sup>

وبمعنى ما، كان وعد بلفور ردّ الغرب على ما كان صلاح الدين أخبر ريتشارد قلب الأسد قبل ٨٠٠ عام في رسالة قبل مغادرة ريتشارد فلسطين:

القدس إرثنا كما هي إرثكم. من القدس عرج نبينا إلى  
السماء، وفي القدس تجتمع الملائكة. لا تفكر بأنه يمكن لنا أن  
نتخلى عنها أبداً. كما لا يمكن بأي حال أن نتخلى عن حقوقنا  
فيها كطائفة مسلمة. أمّا بالنسبة إلى الأرض فإن احتلالكم  
لها كان شيئاً عرضياً وحدث لأن المسلمين الذين عاشوا في

<sup>٣٦</sup> للاطلاع على خطط إسرائيل بالنسبة إلى القدس الكبرى، انظر:

"A Jerusalem Primer" in *Report on Israeli Settlement in the Occupied Territories* (Washington, D.C.: Foundation for Middle East Peace), February 1994.

<sup>٣٧</sup> "Memorandum by Mr. Balfour (Paris) Respecting Syria, Palestine and in Mesopotamia, 1919," edited by E.L. Woodward and Rohan Butler, *Documents on British Foreign Policy 1919-1939*, First Series, vol. iv, 1919 (London: Her Majesty's Stationary Office, 1952), p. 340 ff.

البلاد حينها كانوا ضعفاء. ولن يمكّنكم الله أن تشيدوا حجراً واحداً في هذه الأرض طالما استمرت الحرب.<sup>٣٨</sup>

وإذا كان وعد بلفور هو ردُّ الغرب في القرن العشرين على صلاح الدين، فإن الشكل الخاص الموالي للصهيونية الذي اتخذه الرد كان نتيجة التطورات الخطرة التي حدثت داخل المسيحية منذ الحملات الصليبية الكاثوليكية. وهذه التطورات كانت حركة الإصلاح الديني وبروز البروتستانتية، وتوكيدها الشديد على العهد القديم. وقد وصل هذا الثمل بالعهد القديم إلى ذروته في بريطانيا التطهيرية خلال القرن السابع عشر. ثم همد في القرن الثامن عشر – عصر العقلانية – فقط ليعود ويشحن بزخم، جزئياً كردة فعل على الثورة الفرنسية، في بعث الإنجيلية التبشيرية مبكراً في القرن التاسع عشر، مترافقاً ذلك مع دعوتها المثابرة إلى "عودة" اليهود إلى فلسطين.

وكان القائد العلماني للإنجيلية الإنكليزية في القرن التاسع عشر هو اللورد آشلي، إيرل شافتسبري. لكن إذا كان شافتسبري، كما تورد المؤرخة اليهودية الأميركية باربارا توخمان، قد حمل التوراة مشيراً إلى "عودة" اليهود إلى فلسطين قبل أن يولد مؤسس الصهيونية تيودور هيرتسل بـ ٢٠ عاماً، فقد حمل السيف الإمبريالي في الاتجاه نفسه تعاقب من السياسيين البريطانيين بدءاً باللورد بالمرستون.<sup>٣٩</sup> وبصورة رمزية، نقل المطران الإنجيلي البريطاني الأول الذي جرى تعيينه في القدس سنة ١٨٤١ على زورق تابع للأدميرالية [البحرية البريطانية].<sup>٤٠</sup>

إنه في هذا التراث، الذي جمّد تاريخ فلسطين في الإطار الزمني للعهد القديم، تكلم بلفور. وهذا بالذات هو التراث الذي، في رأيي على الأقل، يكمن إلى حد كبير في خلفية تشريع الكونغرس الأميركي المعاصر فيما يتعلق بالقدس.

وإذا كان ربط بين وعد بلفور والحملات الصليبية قد يبدو للبعض مبالغاً فيه، فقد يكون من الجدير ملاحظة أن هجوم اللورد أللنبي في اتجاه القدس في كانون

<sup>٣٨</sup> بهاء الدين بن شدّاد، "النوادر السلطانية"، تحرير م. أ. صبيح (القاهرة، ١٩٢٧ – ١٩٢٨)، ص

١٨٧.

<sup>٣٩</sup> Barbara W. Tuchman, *Bible and Sword* (New York: New York

University Press, 1989), p. 175 ff.

<sup>٤٠</sup> Ibid., p. 206.

الأول/ ديسمبر ١٩١٧، بضعة أسابيع بعد الوعد إياه، قد قصد صاحبه منه أن يكون "هدية عيد الميلاد" للشعب البريطاني.<sup>٤١</sup> ويجدر كذلك ملاحظة أن رسماً كاريكاتورياً في الأسبوعية اللندنية الشهيرة، "بنش" (Punch)، معلماً باحتلال أللنبي للقدس جاء بعنوان "الحملة الصليبية الأخيرة". وقد رسم ريتشارد قلب الأسد يحدّق في القدس قائلاً: "أخيراً يتحقق حلمي".<sup>٤٢</sup> وبصورة ماثلة، فإن النصب التذكاري للسير مارك سايكس، صاحب شهرة سايكس - بيكو، ومهندس النظام الجديد في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى الذي توفي سنة ١٩١٩، هو "تمثال مزخرف بالنحاس، يرتدي درعاً ويحمل سيفاً وتحت قدميه جثة مسلم، وفوقه درجٌ دوّن عليه [باللاتينية] ابتهجي يا أورشليم." والنصب موجود في سليدمير، يوركشاير، موطن السير مارك.<sup>٤٣</sup>

## (٧)

ما هي احتمالات حل سلمي مشرّف في القدس؟ في الواقع القائم، ولا سيما أن الليكود في السلطة، الاحتمالات صفر. غير أن ذلك لا يعني أن البراعة الإنسانية عاجزة عن ابتداع مثل هذا الحل، أو أن عناصره عصية على التحديد. لكن من الأهمية بمكان لابتداعه ألا يكون حاضراً في ذهن مدى التغييرات الواسعة النطاق التي تمت على الأرض منذ سنتي ١٩٤٨ و ١٩٦٧ فحسب، بل أيضاً مدى عدم توازنها لمصلحة أحد الأطراف. وبهذه الطريقة، نلاحظ كلاً من السياسة الواقعية واعتبارات الإنصاف. طبعاً، إن الوضع كما تطور في القدس ليس إلا صورة مصغرة عما جرى في جميع أرجاء فلسطين الانتداب منذ سنة ١٩٤٨. لكن تماماً بسبب مغزى القدس كصورة مصغرة في الصراع الأوسع فإننا، في بحثنا عن حيّز وسط بين الظلم الملموس وسراب العدل الكامل، ننشد في القدس قوة الشفاء المحتملة لمصالحة تاريخية.

<sup>٤١</sup> Theo Larsson, *Seven Passports for Palestine* (Sussex: Longfield, 1995), p. 26.

<sup>٤٢</sup> Jonathan Riley-Smith, ed., *The Oxford Illustrated History of the Crusades* (Oxford: Oxford University Press, 1995), p. 348.

<sup>٤٣</sup> Ibid.

فما هي عناصر مثل هذه المصالحة في القدس؟ لا أشك إطلاقاً في أنها يجب ان تقوم على المبادئ الأربعة الرئيسية التالية:

- ١- لا احتكار للسيادة في شطري المدينة كليهما من جانب طرف واحد. وهذا هو المفتاح الرئيسي.
  - ٢- لا أرستقراطية بين الأديان الثلاثة تمنح أحدها وضعاً مميزاً على حساب الدينين الآخرين.
  - ٣- لا علاقة غالب ومغلوب، سالب ومسلوب، قانع ومقتلع، في العلاقات بين سكان القدس.
  - ٤- الاعتراف المتساوي بالبعدين، الديني والسياسي على السواء، للقدس بالنسبة إلى الأطراف كافة. فجوهر مسألة القدس كان - ولا يزال - هو بالضبط العروة التي لا انفصام عنها بين البعدين، العلماني والديني. فليست القدس كأي مدينة أخرى. وفي الأوضاع التي تلفها هذه الأيام، لا يمكن للقدس أن تكون عاصمة لأي أمة واحدة، أو لأي مذهب واحد.
- وأعتقد أن أي شخص منصف سيوافق على أنه لا يزال في الإمكان التوافق على هذه المبادئ الأربعة، من دون انتهاك أي من الحقوق الشرعية اليهودية أو الإسرائيلية. وهاكم، للسجل، اقتراحي ذا النقاط العشر لعمل ذلك:
- ١- تكون القدس الشرقية عاصمة فلسطين ببلديتها الخاصة في الحدود البلدية الموسعة لسنة ١٩٦٧؛ وتكون القدس الغربية عاصمة إسرائيل.
  - ٢- تتبع الحدود بين القدس الغربية والشرقية خطوط سنة ١٩٦٧، لكن تكون مفتوحة في الاتجاهين - "سيادة من دون أسوار" - بموجب ترتيبات أمنية متفق عليها.
  - ٣- يحظى الحي اليهودي في البلدة القديمة، ورحبة حائط المبكى، والمقبرة اليهودية على جبل الزيتون، بمنزلة إقليمية خارجية (extraterritoriality).
  - ٤- يبقى عدد متفق عليه من المقيمين اليهود بالقدس الشرقية بصفة مواطنين إسرائيليين، بينما تبقى أحيائهم الخاصة تابعة لبلدية القدس الشرقية الفلسطينية، وتحت السيادة الفلسطينية وفق نظام خاص.

- ٥- تكون لكل ديانة المسؤولية القصرية عن أماكنها المقدسة ومؤسساتها، لكن مجلساً كنسياً مشتركاً برئاسة دورية سيقوم بتعزيز الانسجام بين الأديان الثلاثة وطوائفها.
- ٦- تقوم هيئتان مركزيتان واحدة على المستوى الوزاري والأخرى على مستوى البلدية. وتكون كل منهما برئاسة دورية، وتعنى الأولى بالقضايا السياسية والثانية بالقضايا البنيوية التحتية بين شطري المدينة.
- ٧- الأراضي التي صادرتها إسرائيل ولم تبني عليها في القدس الشرقية يجب إعادتها إلى أيد فلسطينية.
- ٨- الخيار بين التعويض أو العودة يجب أن يُمنح للفلسطينيين المقدسين.
- ٩- تعالج مسألة المستوطنات اليهودية خارج الحدود البلدية الموسعة لسنة ١٩٦٧ في مفاوضات الوضع النهائي بشأن المستوطنات في الضفة الغربية.
- ١٠- ستكون هناك فترة انتقالية متفق عليها.

## (٨)

وكمقدسي عتيق ومواطن أميركي حديث، تنتابني الهواجس فيما يخص وجهتنا في القدس إنْ ثابتت السياسة الأميركية الراهنة تجاه القدس على حالها. فما يريده رئيس الحكومة نتنياهو في القدس ليس سرّاً. والسؤال الحاسم هو ما إذا كانت واشنطن ستعطيه فسحة حرية العمل في القدس التي منحناها لسلفيه. لا وقت هناك لوضع ثبوت بالتراجعات المتدرجة عن الكلمات الأكثر جرأة فيما يتعلق بالقدس، التي تفوهت بها إدارات أميركية سابقة عبر خمسة عقود -<sup>٤٤</sup> وهو تراجع وصل إلى حجم الهزيمة

<sup>٤٤</sup> فيما يلي نماذج من تصريحات سابقة لإدارات متعددة:

(أ) "للجماعة الدينية العالمية مطالب في القدس لها الأسبقية على المطالب السياسية لأي أمة معينة...."

Secretary of State Dulles, address to Nation, June 1, 1953  
(Department of State Bulletin, vol. 28, no. 729, June 15, 1953), p. 832.

(ب) "إن منظورنا كان، ولا يزال، أن مستقبل القدس مسألة تقع في صلب قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، سنة ١٩٦٧".

US United Nations Rep. Goldberg, UN Security Council, May 21, 1968 (Provisional Verbatim Record 1426<sup>th</sup> Meeting S/PV. 1426), pp. 6-7.

(ج) "إن نزع ملكية المباني أو مصادرتها، وبناء المساكن على مثل هذه الأرض، وتدمير المباني أو مصادرتها، بما فيها تلك التي لها أهمية تاريخية أو دينية، وتطبيق القانون الإسرائيلي على الأجزاء المحتلة من المدينة، تلحق الضرر بمصالحنا المشتركة في المدينة."

US UN Rep. Yost, United Nations Security Council, July 1, 1969 (Provisional Verbatim Record, 1483<sup>rd</sup> Meeting, S/PV. 21483), pp. 56-61.

(د) "فيما يتعلق بالسؤال العام عن بناء المساكن وغيرها من المرافق المدنية الدائمة في المنطقة المحتلة، بما فيها القدس، فإن سياستنا هي الدعوة إلى التقيد الصارم باتفاقية جنيف الرابعة لسنة ١٩٤٩، التي إسرائيل هي طرف فيها."

Department of State spokesman Bray III, Press Conference, June 9, 1971 (Daily News Conference's Office of Press Relations, DOS, vol. 61, June 1971), pp. 1-6.

(هـ) "إننا نأسف لعدم اعتراف إسرائيل بمسؤولياتها وفقاً لاتفاقية جنيف الرابعة، وكذلك لأعمالها التي تتناقض مع نص هذه الاتفاقية وروحها. وينتابنا الكرب أن أعمال إسرائيل في الجزء المحتل من القدس تثير قلقاً مفهوماً بأن الحسم النهائي بالنسبة إلى الجزء المحتل من القدس قد يتعرض للإجحاف."

US UN Rep. Bush, United Nations Security Council, September 25, 1971 (Provisional Verbatim Record, 1582<sup>nd</sup> Meeting S/PV, 1582), pp. 166-167.

(و) "وزير الخارجية فانس: إذا رجعت إلى سنة ١٩٧٠ والتصريحات التي أدلينا بها في حينه، قلنا آنذاك إن هناك أرضاً محتلة في القدس، بالتحديد القدس الشرقية.... "سناتور سربانس: هل موقف الحكومة الحالي أن القدس الشرقية أرض محتلة؟" وزير الخارجية فانس: ذلك هو الموقف، نعم."

Secretary of State Vance, Senate Committee on Foreign Relations, March 20, 1980, Committee on Foreign Relations, Senate, 96<sup>th</sup> Congress, 2<sup>nd</sup> Session, March 20, 1980 (Washington, D.C.: GPO, 1980), pp. 12, 13, 20, 21, 25-28.

(ز) "سندعم بالكامل الموقف من أن القدس يجب ألا تقسم وأن وضعها يجب أن يتقرر بالمفاوضات. إننا لا نعترف بالأعمال الأحادية الجانب فيما يتعلق بقضايا الوضع النهائي...."

المنكرة في إدارة كلينتون، وذلك في الظاهر لتشجيع الميول السلمية لدى رئيسي الحكومة السابقين: رابين وبيرس.

إن مشكلة القدس تضاعفت بحقيقة أن الموقع الذي اختير لسفارة الولايات المتحدة المتوقعة في الحي السكني الفلسطيني سابقاً - البقعة - في القدس الغربية هو، إذا استعملنا التعبير الملطف، ملك فلسطيني "مصادر".

وبالتأكيد، فإن موقف الإدارة ضد وقفة الكونغرس الأخيرة التي كانت بلا حياة "ملكية أكثر من الملك" في نقل السفارة، يلقي الترحاب.<sup>٤٥</sup> لكن حتى هذا الموقف يبدو أنه يشير إلى أن قضية النقل هي مسألة وقت فحسب.

---

Secretary of State Shultz, House Foreign Affairs Committee, September 9, 1982, AFPCD, 1982 Doc. #321 (Washington, D.C.: GPO 1985).

(ح) "سؤال: هناك تقرير يقول إنك تنظر في نقل سفارة الولايات المتحدة في إسرائيل إلى القدس الغربية...."

"الرئيس: قرأت ذلك وفوجئت، بنفسى، لسماع أن هناك البعض ممن يوصون بذلك. لا، إنني أشعر شعوراً قوياً بأن هذا ليس شيئاً يجب أن نفعله. هذا يجب أن يكون جزءاً من المفاوضات إذا كنا نريد محادثات سلام."

President Ronald Reagan Q & A on Trip to China, May 1, 1984, pp. RR 1984 (Washington, D.C.: GPO, 1986), pp. 611-612.

(ط) "إن موقفى هو أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة تقول إننا لا نعتقد أنه يجب أن

تقوم مستوطنات جديدة في الضفة الغربية أو في القدس الشرقية. وأنا سأدير تلك السياسة على أنها حازمة، وهي كذلك، وستظهر في أي قرارات نتخذها لنرى ما إذا كان الناس قادرين على التجاوب مع تلك السياسة. وذلك هو منظورنا الذي نتمسك به بقوة."

President George Bush, Press Conference, Palm Springs, CA, March 3, 1990, AFPCD, 1990 Doc # 370 (Washington, D.C.: GPO, 1991), p. 567.

<sup>٤٥</sup> بتاريخ ٩ أيار/مايو ١٩٩٥، قدم السناتور روبرت دول والنائب نيوت غنغريتش مشروع قرار متطابقين في النص إلى الكونغرس، دعياً الإدارة إلى الشروع في أعمال البناء التمهيدية في موقع السفارة الجديد في القدس قبل نهاية سنة ١٩٩٦، والالتزام بفتحها في موعد أقصاه ٣١ أيار/مايو ١٩٩٩، تحت طائلة تخفيض مخصصات البناء لوزارة الخارجية في العالم كله للعامين الماليين ١٩٩٧/١٩٩٨ و ١٩٩٨/١٩٩٩.

وبتاريخ ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٥، أقر قانون نقل السفارة بعد إدخال تعديل عليه بطلب من الإدارة الأميركية، ويقضي هذا التعديل بتعليق مفعول القانون لفترات متتالية من ستة أشهر بطلب من رئيس الجمهورية إذا ما رأى أن مصلحة الأمن القومي الأميركي تستدعي ذلك.

والمشكلة في نقل السفارة هي أنه التعبير الأعلى للاعتراف. وأخذاً في الاعتبار إصرار واشنطن على قدس "موحدة"، يبقى السؤال الأعظم: بأي قدس ستعترف واشنطن؟ القدس الغربية، أم القدس الغربية مضافاً إليها بلدية القدس الأردنية سابقاً، أم القدس الغربية مضافاً إليها بلدية القدس الأردنية سابقاً بالإضافة إلى حدود القدس الشرقية البلدية الموسعة؟ أم القدس الغربية بالإضافة إلى بلدية القدس الأردنية سابقاً بالإضافة إلى حدود القدس الشرقية البلدية الموسعة إضافة إلى الطوق الواسع من المستوطنات خارج البلدية في الضفة الغربية؟

عندما استعملت الولايات المتحدة مفهوم القدس غير المقسمة أول مرة، كان هذا المفهوم منسجماً مع إصرار الولايات المتحدة على تطبيق قوانين الاحتلال بالحرب ومعاهدة جنيف.<sup>٤٦</sup> فهل ما زالت الحال على ما كانت عليه، أم أن دعم واشنطن اليوم لـ "وحدة" القدس يرمي من خلال التعمية إلى التغطية على تخليها عن موقفها المبدئي السابق؟

وأنا أقول "عبر التعمية" لأن واشنطن والعالم كله على علم بأن الوحدة الوحيدة القائمة بين شطري القدس اليوم قد جاءت، مع الاختلاف في الظروف، عبر الضم العسكري على غرار ما فعله هتلر بتشيكوسلوفاكيا عشية الحرب الكونية الثانية.

إن المجرم الرئيسي في هذا التعتيم من جانب الولايات المتحدة هو الكونغرس الأميركي، الذي يسلك كأنه يمتلك تفويضاً سماوياً للتصرف في مستقبل القدس من دون الالتفات إلى مشاعر مئات الملايين من المسيحيين والمسلمين في جميع أرجاء العالم. ويجري التعاطي مع المسألة كأنها مادة أخرى مدرجة في جدول أعمال الكونغرس الداخلي. لكنها ليست ككل المواد الأخرى من هذا القبيل؛ إذ هي لا تُمنح حتى مجاملة عقد جلسة لمناقشة عامة بشأنها. وهكذا، وفيما يتعلق بالقدس، فالعملية الديمقراطية في الولايات المتحدة معلقة. والمحاسبة العلنية تطرح جانباً، وما يبقى لدينا هو سياسة تحاك خلصة في دهاليز الكونغرس. وهذا في مسألة تلامس هيبة أميركا وصدقيتها كونياً، والتي إذا لم تجد لها حلاً، ففي إمكانها فعلاً أن تنذر بصدام الحضارات الذي يتنبأ به البعض.

إنه ليس رصيماً للولايات المتحدة أن تقتن بأهداف الحد الأقصى الإقليمية والسياسية لإسرائيل في القدس، والتي هي مركزية في أيديولوجيا الليكود.

<sup>٤٦</sup> انظر الحاشية ٤٤.



إنه ليس ذخراً للولايات المتحدة أن تقتن بالتلفيق الديني الأصولي الذي ستضفيه حكومة الليكود على ادعاءاتها القصرية في القدس.

إنه ليس ذخراً للولايات المتحدة أن تعين موقعاً لسفارتها على أرض فلسطينية مصادرة، الأمر الذي يُعتبر بمثابة تصديق، بمفعول رجعي، لموجات إسرائيل المتعاقبة من مصادرة أملاك اللاجئين الفلسطينيين ونزع ملكية أصحابها عنها.

القدس الفلسطينية، بما فيها الأماكن الإسلامية المقدسة والأوقاف، ليست ميراثاً لأي صاحب منصب عربي في أي عاصمة عربية، وإنما هي ميراث لمليار مسلم ولشعب فلسطين العربي.

إن مساحة عاصمة داود القديمة تشكل، في حد ذاتها، أقل من ١ في المئة مما يسمى اليوم القدس الموحدة.<sup>٤٧</sup> وليست الاعتبارات الدينية، أو التاريخية، أو الاقتصادية، أو الأمنية، هي التي تحدّد حالياً ملامح حدود القدس البلدية الموسعة، ناهيك عن حدود القدس الليكودية الكبرى، وإنما ما يحددها هو عملية التلاعب الجائر بلا رحمة بحدود الآخرين، والموظفة في خدمة قومية أنانية عمياء لا ترى إلا ذاتها، وروحية تحدّ فظة للرأي العام العالمي. وإذا كانت هذه الروحانية تستمد بأسها من موارد ذاتية فهي أيضاً تستمد، وبالقدر إياه، من خزان التساهل اللامتناهي الذي يمتد من كابيتول هيل [الكونغرس] إلى جادة بنسلفانيا [البيت الأبيض].

إن فكرة صدام الحضارات بعيدة عن كونها أحدث التكهّنات؛ فهي بضاعة قديمة روج لها روديارد كبلنغ في مقولته: "الشرق هو الشرق والغرب هو الغرب ولن يلتقي الاثنان أبداً." لكن طرح الفكرة في حد ذاتها ليس ببراءة القديم الذي عفا عليه الزمن؛ فهو يحمل طابع الحتمية المتحيز، وينذر بالسوء فيما ينطوي عليه من احتمال لتحقيق الذات. وعيبه الأكبر أنه يلغي المبادرة الإنسانية. وهذا هو السبب في أن حلاً قابلاً للحياة يجب أن يخطف هدير كل الاسترجاعيين - من الصليبيين والصليبيين بالوكالة والجهادات والجهادات المضادة.

<sup>٤٧</sup> انظر:

Bahat with Rubenstein, op. cit., p. 30.

وهذا هو السبب في أن على أولئك الملتزمين بحل سلمي مشرف أن يتوحدوا لإيقاف قوى الأصولية – إسلامية ومسيحية ويهودية – التي تتهاذى نحو موعدها في القدس، في مكانها.<sup>٤٨</sup>

لكن إزاء التطورات الأخيرة في إسرائيل بوجه خاص، ما من سبيل لحدوث ذلك من دون تولي الدولة الوحيدة التي لديها القوة، والمصلحة القومية، والواجب الخُلقي، القيادة على هذا الصعيد.

لقد اقتطفت أعلاه كلمات صوفيَّين مسلمين. وأود أن أختتم بكلمات صوفي مسلم آخر هو جلال الدين الرومي الذي لا يضاهاى:

مكان العبادة الذي أقامه سليمان،  
وسمي المسجد الأقصى، لم يشيد من تراب  
وماء وحجارة...  
كل جزء منه روح ويتجاوب  
مع كل سواه. السجاد ينحني للمقشة.  
المطرقة والباب يتمايلان معاً  
كأنهما موسيقيان.  
ويذهب سليمان هناك كل صباح ليهدي الناس  
بالقول، وبالفعل،  
الذي هو الحكم الأعظم، فالملك ليس سوى  
وهم حتى يقوم بكريم الفعل.<sup>٤٩</sup>

<sup>٤٨</sup> بالنسبة إلى الأصولية اليهودية في إسرائيل والخطر الذي تطرحه إزاء الأماكن الإسلامية

المقدسة في القدس، انظر:

Ian Lustick, *For the Land and the Lord* (New York: Council on Foreign Relations, 1988).

<sup>٤٩</sup> “The Far Mosque,” *The Essential Rumi*, translated by Coleman Barks with John Moyne (San Francisco: Harper, 1995), p. 191.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: [majallat@palestine-studies.org](mailto:majallat@palestine-studies.org)  
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:  
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>